١

مُقَدِّمَةٌ بَيْنَ يَدَيِ التَّفْسِيرِ

تأليف

علي بن سالم بن يعقوب باوزير
غفر الله له ولوالديه

من منشورات المركز العلمي والدعوي
حضرموت . غيل باوزير . معيان الشيخ

منشوراتنا تطلب من مكتبة القدس
ومركز القمة . غيل باوزير

(مقدمة بين يدي التفسير) (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

فاعلم ـ يا عبد الله ـ أن نعم الله على خلقه كثيرة ، وأعظمها وأجلها أنْ منَّ عليهم ببعثة خاتم الأنبياء وإمام الرسل ، وأنزل عليه أعظم كتاب وأجل ، كما قال سبحانه : ﴿ لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ .

وجعله مهيمنا على الكتب السابقة ، حاكما عليها ، وناسخا لها ، فقال جل وعلا : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ﴾ .

وجعله لهم هدى ورحمة ، وشفاء وموعظة ، فقال : ﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾ وقال تعالى: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ﴾ ، فهو شفاء من الأمراض المعنوية كالكفر والشرك والشك والنفاق ، والحسد والغل والبغضاء لما يحبه الله ويرضى ، وهو شفاء أيضا من الأمراض الحسية العضوية كما ثبت ذلك في قصة اللديغ الذي رقي بالفاتحة ، فقام وكأنما نشط من عقال .

من تمسك به فاز ونجا ، ومن أعرض عنه هلك وتردى ، قال تعالى : ﴿ فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ۞ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ۞ قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا ۞ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾ .

---

(١) أصل هذه الرسالة درس ألقي كمقدمة لدروس التفسير ، ثم كُتِب فراجعته وهذبته زيادة وحذفا ، بما يناسب الحال ، لينتفع به .

قد ضمن الله لمن تمسك بـه ، وعض علـى سنـة رسوله ﷺ الأمان من الكفر ، فقال تعالى : ﴿ وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ﴾ أي ما دام فيكم كتاب الله جل وعلا وسنة رسوله ﷺ يعمل بهما فكيف تكفرون بعد ذلك ؟

هذا وقد أمر الله ـ تبارك وتعالى ـ وحث على أربعة أمور تتعلق بالقرآن الكريم ، وهي أولاً : قراءته ، ثانياً : تدبره ، ثالثاً : العمل به ، رابعاً : الدعوة إليه ، فهذه أربعة أمور تتعلق بكتاب الله جل وعلا .

(أولا : قراءة القرآن الكريم)

أما قراءته فقد جاء الترغيب فيها وفي تحسينها ، وذلك بتجويدها وترتيلها في آيات من كتاب الله جل وعلا ، وأحاديث من سنة رسول الله ﷺ، كقوله تعالى: ﴿ الذين يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ﴾ ، وكقوله تعالى : ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور ﴾، وقوله : ﴿ ورتل القرآن ترتيلا ﴾ ، ومن السنة قوله ﷺ : (خيركم من تعلم القرآن وعلمه) رواه البخاري ، وقوله ﷺ : (من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ألم حرف بل ألف حرف ولام حرف وميم حرف) ، وقوله ﷺ : (اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه) ، وقوله ﷺ : (الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذي يقرأ القرآن ويتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران)، وقوله ﷺ: (زينوا القرآن بأصواتكم)، وقوله ﷺ : (ليس منا من لم يتغن بالقرآن) .

(ثانيا : تدبر القرآن الكريم)

وأما تدبره ، فإن الله جل وعلا أمر بتدبر هذا القرآن وحث على تفهمه ومعرفة معانيه في آيات ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾ وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾، وقال تعالى: ﴿ أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين ﴾.

ففي هذه الآيات يأمر الله جل وعلا بتدبر كلامه وتفهمه ومعرفة معانيه ، وذلك من أهم الأمور ، ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (والعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابا في فن كالطب والحساب ولا يستشرحوه) ، يعني : ولا يطلبوا شرح هذا الكتاب ، ومعرفة معانيه . فهل رأيتم أحدا يعكف على بعض كتب الطب أو الحساب يقرأ فيها من غير أن يفهم معناها ؟ ومن غير أن يطلب شرحا لها ؟ لا يوجد أحد يفعل ذلك ، ولو وجد لعد من المجانين أو من المغفلين ، ولهذا قال ـ رحمه الله ـ : العادة تمنع ذلك . فكيف بكتاب الله جل وعلا الذي به عصمتهم ، وفيه نجاتهم، وعليه قوام دينهم ودنياهم، ومدار سعادتهم في الدنيا والآخرة ، لا شك أنه أولى وأولى بأن يعتنى به من جهة معرفة معانيه ، وتدبر أحكامه ، وتفهم أخباره ، ولأن العمل به يتوقف على فهمه وتدبره ، فلا يتأتى العمل به إلى بذلك .

(ثالثا : العمل بالقرآن الكريم)

وأما العمل به ، فهو ثمرة الفهم عن الله ورسوله ، فإذا قَرَأ وفَهِم عَمِل ، وما أكثر الآيات التي يحث ربنا تبارك وتعالى فيها على الأعمال الصالحات ، حتى جعل ذلك أحد أسباب النجاة من الخسران ، كما في سورتي العصر ، والتين ، ورتب عليها السعادة في الدنيا والآخرة ، كما في قوله تعالى : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ ، والاستخلاف في الأرض، والتمكين فيها، وبسط الأمن، كما في قوله تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ﴾ ، وغير ذلك كثير ، وما مثل من يقرأ كتاب الله تعالى ولا يعمل به إلا كمثل أمير بعث إليه الملك رسالة ، يأمره فيها بأن يبني له بيتا في ناحية من البلد ، فجعل هذا الأمير يقرأ رسالة الملك صباحا ومساء ، ولا يعمل شيئا مما أمره به الملك في رسالته ، فمثل هذا لا شك في كونه مقصرا ، يستحق اللوم والعقوبة .

(رابعا : الدعوة إلى القرآن الكريم)

وأما الدعوة إليه ، فهي الدعوة إلى التمسك بما جاء في كتاب الله جل وعلا ، امتثالا لأوامره ، واجتنابا لنواهيه ، وتصديقا لأخباره ، وكل هذه المعاني جاءت في سورة العصر ، وهي قوله تعالى : ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ ، فهذه الأربعة هي أركان النجاة من الخسران، ولهذا قال الإمام الشافعي رحمه الله : لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم.

وقد كان الصحابة رضي الله تعالى عنهم لا يُجاوزون عشر آيات حتى يدركوا ما فيها من العلم والعمل ، فكان هذا منهجهم رضي الله تعالى عنهم ، ومن هنا كان الاعتناء بتدبر القرآن الكريم وتفهم معانيه أمرا لا بد منه ، ومعرفة التفسير من ذلك الأمر .

(معنى التفسير وحكمه)

وأصل التفسير مأخوذ من الفَسْر ، وهو الكشف والإيضاح والبيان ، والمراد به معرفة معاني كلام الله جل وعلا ، وقد أمر الله تعالى أهل الكتاب أن يبلغوا عنه سبحانه ما جاء في كتبه ، وأخذ عليهم العهد والميثاق بذلك ، فقال تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيينه للناس ولا تكتمونه ﴾ فهذا عهد مؤكد ، أخذه الله جل وعلا على من أعطاهم الكتاب .

فالذين أُعْطُوا التوراة عهد عليهم أن يبينوها للناس في زمنهم ولا يكتموها .

وكذلك الذين أُعْطُوا الإنجيل عهد عليهم من الله أن يبينوه للناس ولا يكتموه .

وكذلك من أعطاهم الله القرآن عليهم عهد وميثاق أن يبينوه للناس .

ولهذا كان تفسير كتاب الله تبارك وتعالى تارة يكون فرض كفاية ، وتارة يكون فرض عين ، وهذه المسؤولية تقع على أهل العلم ، فإنه يجب عليهم أن يبينوا معاني القرآن الكريم للناس عموما وخصوصا ، والناس يجب عليهم أن يطلبوا ذلك من أهل العلم الموثوقين ، المعروفين بسلامة المعتقد ، وصحة المنهج ، واجب عليهم أن يطلبوا ذلك بأنفسهم ، ولا يقولوا : إن أتانا أتينا ، وإن لم يأتنا فقد كفانا ، فإن هذا غلط عظيم ، وما أكثر الوسائل والسبل ـ بحمد الله ـ التي يستطيع المسلم أن يتعرف بها على تفسير كتاب

الله جل وعلا ، كالكتب ، والأشرطة ، والإذاعة ، وتلقي الدروس المباشرة من أهل العلم ، وكل ذلك متيسر ، ولله الحمد والمنة ، لا سيما في هذا الزمن ، وقد ترك لنا الأئمة والعلماء بحرا زاخرا من كتب التفسير على اختلاف أساليبها ومناهجها ، تفاسير كثيرة جدا خدمت كتاب الله جل وعلا ، ولعله لم يخدم كتاب بمثل ما خدم به القرآن الكريم .

(مناهج العلماء في التفسير وأحسن كتب التفسير)

فمنهم من اعتنى ببعض جوانبه كالمباحث اللغوية والنكت البلاغية ، أو الاستشهادات النحوية والقواعد الصرفية ، أو الأحكام الفقهية ، ومنهم من أخذ من كل بنصيب ، ثم منهم من أوجز ، ومنهم من أطنب ، ومنهم من فتَّش فصحح ونقح واجتهد، ومنهم من قمَّش فجمع كل ما هب ودب ، منهم من اعتنى بالآثار السلفية ، ومنهم جعل جُلَّ همِّه حشدَ الأخبار الإسرائيلية ، وتقرير الآراء الردية ، والعقائد الغويَّة .

وإن أعظمَ وأجلَّ كتب التفسير ـ التي عنيت بتتبع الأحاديث وأقوال الصحابة والتابعين وروايتها بالأسانيد ـ هو تفسير شيخ المفسرين الإمام محمد بن جرير الطبري رحمه الله تعالى .

والذي اختصره الحافظ ابن كثير رحمه الله في (تفسير القرآن العظيم) ، وزاد عليه تحقيقا وتنقيحا ، وتصحيحا وترجيحا ، وهو من أحسن التفاسير ؛ بل هو أحسنها ، لأنه يعتني به من جهة التفسير بالقرآن والأثر ، وكذلك من جهة تقرير العقيدة السلفية ، والمسائل الفقهية ، وكلام العلماء فيها ، والعناية بالترجيح كثيرا ، مما جعل تفسيره هذا في مقدمة كتب التفاسير المعتمدة .

وقريب منه تفسير الإمام البغوي رحمه الله تعالى المسمى بـ (معالم التنزيل) .

وكذا تفسير الإمام الشوكاني رحمه الله المسمى بـ (فتح القدير) .

وتفسير العلامة القاسمي رحمه الله المسمى بـ (محاسن التأويل) .

وتفسير العلامة الألوسي رحمه الله المسمى بـ (روح المعاني) .

ومن ذلك تفسير الإمام ابن عطية رحمه الله المسمى بـ (الوجيز) .

وتفسير العلامة الطاهر بن عاشور رحمه الله المسمى بـ (التحرير والتنوير) .

وتفسير العلامة ابن جزي رحمه الله المسمى بـ (التسهيل لعلوم التنزيل) .

وهذه الثلاثة الأخيرة عليها بعض المؤاخذات .

وتوجد هناك بعض التفاسير التي اعتنت ببعض الجوانب من التفسير ، كتفسير الزمخشري رحمه الله فإنه اعتنى بالقرآن الكريم من الناحية البلاغية، إلا أنه في العقيدة ليس على عقيدة أهل السنة والجماعة ، بل عقيدته فاسدة عقيدة المعتزلة ، وهي مخالفة لما عليه السلف الصالح ، أهل السنة والجماعة .

وقريب منه تفسير في ظلال القرآن لسيد قطب رحمه الله ، فإنه وإن ربطه بالواقع، ونمق عبارته ، وحسن أسلوبه ، إلا أنه لم يوفق لطريقة السلف الصالح رحمهم الله لا في العقيدة ولا في المنهج ، فقد خلَّط فيه رحمه الله في أمور عظيمة ، تمس بأصول الدين ، ولهذا انتقده جماعة من العلماء [١] ، وبينوا ما وقع في تفسيره من أخطاءٍ فاحشة ، وحذروا عامة الناس ، وصغار طلبة العلم من أخطائه هذه رحمه الله ، وغفر له ، فكم من مريد للحق لم يوفق إليه .

وإنما فعل العلماء ذلك نصحا للمسلمين ، وحفظا لشريعة رب العالمين ، من أن تكون عرضة لخطأ المخطئين ، وكيد الخاطئين ، ولا شك أن أمر العقيدة والتوحيد هو أعظم الأمور ، وأجلها لدى الإنسان ، فلا يأخذه إلا عمن قرره على طريقة السلف الصالح ، وأهل السنة والجماعة ، لقول الله تعالى : ﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق ﴾ وقوله : ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ﴾ .

ولا ريب أنه لم يسلم كتاب من الخطأ ، حاشا كتاب الله المجيد ، الذي ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ﴾ ، فالكمال لله وحده ،

---

(١) ومن هؤلاء العلماء والمشايخ : الشيخ عبد الله الدويش ، وابن باز ، والألباني ، وابن عثيمين ، وصالح الفوزان ، وصالح اللحيدان ، وعبد الله الغديان ، وعبد المحسن العباد ، وحماد الأنصاري ، وأحمد النجمي، ومحمد الجامي ، وربيع المدخلي ، وصالح آل الشيخ ، وصالح السحيمي ، ومحمد جميل زينو ، وغيرهم كثير .

وإنما نبهت على ذلك هنا لأمرين اثنين : أولا : لافتتان بعض الشباب بما وقع فيه ـ رحمه الله ـ من أخطاء فادحة في باب التكفير والحاكمية ، وثانيا : لمجادلة بعض الناس عن تفسيره بالباطل ، وزعمهم أنه من أفضلها ، بل قال قائلهم : إنه أفضل من فسر لا إله إلا الله !! ، ولا شك أن هذا ليس من النصيحة في شيء ، بل فيه تغرير عظيم .

والعصمة لرسوله ﷺ ، ولكن ما فحش خطؤه ، وعظم خطره وجب الحذر منه ، لقوله تعالى : ﴿ وإثمها أكبر من نفعهما ﴾ ، لا سيما إذا وجد ما هو أسلم منه ، وأخف ضررا، وأقل خطأً ، والله تعالى أعلم .

ومن التفاسير التي اعتنت ببعض الجهات أيضا تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي رحمه الله ، فإنه اعتنى به من جهة المسائل النحوية ، والمباحث الصرفية ، ومثله تفسير السمين الحلبي رحمه الله .

ومنها ما اعتنى بالمسائل الفقهية فبسط مسائل الفقه ، وذكر خلاف العلماء وأقوالهم ، كتفسير القرطبي رحمه الله ، وهو نافع ومفيد لطلبة العلم من هذه الجهة .

ومثل ذلك أيضا الكتب التي عنيت بتفسير آيات الأحكام : ككتاب الجصاص الحنفي، وابن العربي المالكي ، والكيا الهراسي الشافعي ، وكذا الموزعي ، وصديق حسن خان ، رحمهم الله ، ونحو ذلك من كتب التفسير الكثيرة التي تزخر بها المكتبة الإسلامية .

ولكن من أجمعها وأحسنها ، وأسلمها عقيدة ومنهجا ، تفسير الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى ، وإن كان فيه طول نِسْبِي في بعض المواضع ، حيث يورد الأحاديث والآثار التي رويت مما لها تعلق بتفسير الآية، ويورد أحيانا بعض القصص الإسرائيلية، ويتكلم عليها غالبا فينتقدها أو يوجهها ، فهو تفسير جيد ومفيد .

وقد اختصر تفسيره هذا جماعة من العلماء ، تيسيرا لعموم المسلمين ، منها مختصر العلامة أحمد شاكر رحمه الله ، وهو أحسن مختصراته ، ويليه المختصر الذي أشرف عليه الشيخ صفي الرحمن مباركفوري ، ومختصر الشيخ الرفاعي ، ومختصر الشيخ محمد كريم راجح ، فإذا وجد المسلم مختصرا من هذه المختصرات فإنه يعطيه خلاصة تفسير ابن كثير رحمه الله ، إلا مختصر محمد علي الصابوني فإن العلماء قد تكلموا فيه وانتقدوه ، لأنه نحا به في العقيدة منحى غير صحيح ، لأجل ذلك انتقده العلماء ، وتكلموا عليه ، لكن غيره من المختصرات المذكورة جيدة فيستفاد منها .

ومن الكتب الجيدة المفيدة والمأمونة أيضا تفسير العلامة محمد الأمين الشنقيطي ، وتفسير العلامة ابن سعدي رحمهما الله ، وأيسر التفاسير للشيخ أبي بكر الجزائري ،

وزبدة التفسير للأشقر حفظهما الله ، لا سيما التفاسير الثلاثة الأخيرة ، فإنها نافعة ومفيدة جدا لعامة الناس ، وصغار طلبة العلم ، لما فيها من السهولة والاختصار ، والوضوح والتيسير ، والله ولي التوفيق .

(أحسن طرق التفسير)

فإن قيل : ما هي أحسن طرق التفسير ؟

فالجواب أولا : أن يفسر القرآن بالقرآن ، فإذا أبهم شيء في القرآن ووُجِد ما يفسره ويوضحه في موضع آخر ، فليؤخذ به ، وليعضَّ عليه بالنواجذ ؛ لأنه لا أحد أعلم بكلام الله تعالى من نفسه جل وعلا .

فمن ذلك مثلا قوله تعالى : ﴿ القارعة ﴾ ، فسرها سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ۞ وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾ فالمراد بالقارعة إذاً يوم القيامة .

ومن ذلك أيضا : ﴿ الطارق ﴾ فسره ربنا تبارك وتعالى بقوله : ﴿ النجم الثاقب ﴾ أي الذي يخترق بنوره ظلام الليل .

ومثل ذلك : ﴿ هلوعا ﴾ ، في قوله تعالى : ﴿ إن الإنسان خُلِق هلوعا ﴾ يفسره ما بعده ، وهو قوله تعالى : ﴿ إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا ﴾ جزوعا أي قليل الصبر، ومنوعا : أي ماسكا للأموال ، بخيلا بها ، لا يؤدي منها حقها .

ومثل ذلك قوله تعالى في سورة الفاتحة : ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ فسر الله الذين أنعم عليهم في سورة النساء بقوله : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ﴾ ، فالذين أنعم الله عليهم هم أربعة أصناف : النبيون ، والصديقون ، والشهداء ، والصالحون .

ومثل ذلك بيان من هم ﴿ أولياء الله ﴾ ، ذكرهم الله في قوله : ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ۞ الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ ، فبالإيمان والتقوى تنال الولاية في الدين ، وبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾ ، ولهذا قال شيخ الإسلام

ابن تيمية رحمه الله : مَن كان مؤمنا تقيا كان لله وليا ، فهؤلاء هم أولياء الله ، فليست الولاية بكبر العمامة ، ولا بطول القميص ، ولا بعرض الأكمام ، ولكن بتحقيق هذين الوصفين الإيمان والتقوى ، ومن اختل فيه شيء منهما فليس بولي لله تعالى ، ولو جعل عمامته اثنتي عشرة عصرة ، وعرض كمه ثلاثة أذرع .

(التفسير بالمقابل)

ومثل ذلك أيضا : التفسير بالمقابل ، كما في قوله تعالى : ﴿ انفروا ثباتٍ ﴾ أي متفرقين ، بدليل ذكر مقابله ، وهو قوله : ﴿ أو انفروا جميعا ﴾ .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ فإن خفتم فرجالا ﴾ أي فصلوا وأنتم راجلون ، بمعنى تمشون على أرجلكم ، بدليل قوله : ﴿ أو ركبانا ﴾ أي راكبين ، كقوله تعالى : ﴿ وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ﴾ .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وساربٌ بالنهار ﴾ أي ظاهر ، بدليل قوله قبلُ : ﴿ ومن هو مستخف بالليل ﴾ ، فالسارب يقابل المستخفي في المعنى .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وما تغيض الأرحام ﴾ ، أي تنقص ، بدليل قوله تعالى بعده : ﴿ وما تزداد ﴾ ، كقوله تعالى عن طوفان قوم نوح : ﴿ وغيض الماء ﴾ أي نقص .

وهكذا في مواضع عديدة تجد تفسير القرآن في القرآن نفسه ، فإن وجد ذلك فهو أفضل أنواع التفسير وأعلاها ، وإلا فتليه المرتبة القادمة وهي .

(تفسير القرآن بالسنة)

ثانيا : تفسير القرآن بالسنة ، فإذا صح شيء عن النبي صلى الله عليه وسلم في التفسير ، فخذ به ، وعضَّ عليه بالنواجذ أيضا ، لأنه لا أحد من الناس أعلم بكلام الله تعالى من رسوله ﷺ ، قال تعالى : ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلى وحي يوحى ﴾، وقال تعالى : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ وهو عرق متصل بالقلب إذا قطع هلك الإنسان ، وقال تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ .

مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ فالحسنى هي الجنة ، والزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم ، كما جاءت بذلك السنة .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ جاء في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه فسر القوة بالرمي فقال : (ألا إن القوة الرمي) وقوة الرمي تختلف بحسب الأمكنة والأزمنة ، فإذا كان في الزمن القديم الرمي بالسهام والرماح ، ففي الحديث بالصواريخ والقنابل والقذائف والرصاص ، بالطائرات والدبابات والمدافع والرشاشات ونحوها من آلات الرمي .

ومن ذلك أيضا قوله تعالى : ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ ، فإنها لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين ، فقالوا : يا رسول الله وأينا لا يظلم نفسه ؟ فقال النبي ﷺ : (ليس ذلك ، إنما هو الشرك ، ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه : ﴿ يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾ . متفق عليه .

(تفسير القرآن بأقوال الصحابة)

ثالثا : تفسير القرآن بأقوال الصحابة ، فإن لم يوجد تفسير في القرآن ، ولا في السنة ، فإنه يصار إلى كلام الصحابة رضي الله عنهم ، فهم أعلم الناس بكلام الله تعالى بعد رسوله ﷺ لأنهم شهدوا التنزيل ، فعرفوا التأويل ، فقد صحبوا النبي ﷺ سفرا وحضرا ، سلما وحربا ، وهم أصدق لهجة ، وأبر قلوبا ، وأصح طريقة ، وأفقه دينا ، وأبعد عن الهوى ، وأسلم من نزغات الشيطان الرجيم ، رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

ومن أمثلة ذلك ما ورد عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في معنى : ﴿ لا مستم ﴾ من قوله تعالى : ﴿ وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا ﴾ ، فقد فسر قوله تعالى : ﴿ أو لامستم النساء ﴾ بالجماع ، لا جس اليد ، فإنه غير ناقض للوضوء على الصحيح من كلام العلماء ، ولهذا ثبت أن النبي ﷺ كان يقبل بعض نسائه ، ثم يخرج إلى الصلاة ولا يتوضأ ، وكذلك كان يصلي بالليل وتكون عائشة معترضة بين يديه فإذا أراد النبي ﷺ أن يسجد غمز رجلها ، لتبعدها حتى يسجد ، لأن المكان ضيق ، مما يدل على أن لمس المرأة

الأجنبية لا ينقض الوضوء ، وابن عباس رضي الله عنهما هو حبر القرآن ، بسبب دعاء النبي ﷺ له بالفقه في الدين ، والعلم بالتأويل .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ والسماء بنيناها بأيدٍ ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي بقوة . وهو نظير قوله تعالى : ﴿ واذكر عبدنا داود ذا الأيد ﴾ أي صاحب القوة في العبادة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار ﴾ أي أصحاب القوة في العبادة ، والبصيرة في الدين ، وليست الأيد هنا جمع يد التي هي الجارحة في المخلوق .

(تفسير القرآن بإجماع التابعين)

رابعا : تفسير القرآن بما أجمع عليه التابعون ، فإن لم ينقل عن الصحابة تفسير ، وأجمع التابعون على شيء أخذ به ، لأنهم في الغالب لا يجمعون على شيء إلا ولهم مستند من الصحابة ونحوهم .

(تفسير القرآن باللغة العربية)

خامساً : التفسير باللغة ، فإن لم يوجد للتابعين كلام ، أو اختلفوا ولا مرجح لقول أحد منهم ، رجع بعد ذلك إلى لغة العرب ، وما دلت عليه اللغة العربية من المعاني ، فإن الله تعالى أنزل هذا القرآن عربيا ، كما قال : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ ، أي بلغة قومه، وقال تعالى: ﴿ إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون﴾ فالقرآن الكريم نزل بلغة العرب ، فيفسر بما دلت عليه اللغة العربية .

وقد قال العلماء : إن الأصل أن تحمل الألفاظ الشرعية على المعاني الشرعية ، لأن الألفاظ الشرعية تكلم بها الشرع ، فتحمل على عرفه ، وهو المعنى الشرعي ، ولا تصرف إلى المعاني اللغوية أو العرفية إلا إذا دل دليل على أن المعنى الشرعي غير مراد ، وأن المراد به المعنى اللغوي مثلا ، فيصار إليه حينئذ ، كقوله تعالى : ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره ﴾ ، الصلاة في الشرع هذه العبادة المفتتحة بالتكبير والمختتمة بالتسليم ، ومعناها في اللغة الدعاء ، فتحمل على المعنى الشرعي بناء على الأصل ، ويؤخذ النهي عن الدعاء لهم من دليل آخر ، وهو قوله تعالى : ﴿ ما كان للنبي

والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾ .

فإن دل دليل على أن المراد بالصلاة ـ في كلام الشرع ـ المعنى اللغوي ، وهو الدعاء حمل عليه ، كقوله تعالى : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ﴾ ، أي ادع لهم ، ولهذا جاء في الصحيح أن النبي ﷺ كان إذا جاءه الصحابي بصدقة ماله دعا له ، فقال : (اللهم صل على آل فلان) .

(فصل في المكي والمدني)

ثم اعلم أن سور القرآن وآياته تنقسم إلى قسمين : منها المكي ومنها المدني ، واعلم أن الأصل أن السورة المكية جميع آياتها مكية ، إلا ما دل الدليل على أنه مدني ، وكذا العكس ، فلا يصح استثناء آية أو آيات إلا بدليل ، فإن لم يقم دليل على الاستثناء ، فالأصل أن جميع آياتها مكية أو مدنية .

(الفرق بين المكي والمدني)

فإن قيل : ما هو الفرق بين المكي والمدني ؟ فالجواب : المكي ما نزل قبل الهجرة، سواء نزل بمكة أو بغيرها ، والمدني ما نزل بعد الهجرة ، سواء نزل بالمدينة أو بغيرها ولو بمكة ، كما في قوله تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ فإنها مدنية ، لأنها نزلت بعد الهجرة ، ولو كان نزولها بعرفة .

(فائدة معرفة المكي والمدني)

وفائدة معرفة المكي والمدني ، معرفة الناسخ والمنسوخ ، فإذا علم أن هذه الآية مكية ، وهذه الآية مدنية ، وظهر بينهما تعارض ، لا يمكن معه الجمع ، فإن المدني يكون ناسخا للمكي .

(من علامات المكي والمدني)

لكل من المكي والمدني علامات تميزهما :

فمن علامات المكي غالبا : قصر آياته ، وقوة أسلوبه ومحاجته ، وتقرير توحيد الألوهية ، وأمر البعث ، لأن غالب المخاطبين معرضون مستكبرون معاندون فخوطبوا بما تقتضيه حالهم .

ومن علامات المدني غالبا : طول آياته ، وسهولة خطابه ، وذكر الأحكام ، والجهاد ، والمنافقين وأحوالهم ، لمناسبة الحال ذلك .

(فصل القرآن الكريم محكم ومتشابه)

اعلم أن الله تعالى وصف القرآن الكريم مرة بأنه كله محكم ، ومرة وصفه بأنه كله متشابه ، ومرة وصفه بأن منه المحكم ، ومنه المتشابه ، فوصفه كله بالمحكم في قوله : ﴿ كتاب أحكمت آياته ﴾ .

ووصفه كله بالمتشابه في قوله : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها ﴾ ، ووصفه بأن منه المحكم ومنه المتشابه في قوله : ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ﴾ .

وتوجيه ذلك هو أن المراد بالإحكام العام : الصدق والعدل والإتقان ، فكل آياته صدق وعدل ، وهي في غاية من الإتقان ، كما قال تعالى : ﴿ وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ﴾ أي صدقا في الأخبار ، وعدلا في الأحكام ، فلا جَور فيه ولا كذب ، ولا اضطراب فيه ولا ريب ، كما قال تعالى : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾ ، وقال : ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾ ، هذا هو معنى الإحكام العام ، فهو كله محكم باعتبار هذا المعنى .

ومعنى التشابه العام : هو أن بعضه يشبه بعضا في الصدق والعدل والإتقان والإحكام ، فهو كله متشابه باعتبار هذا المعنى .

وأما الإحكام والتشابه الجزئي ، المذكور في قوله تعالى : ﴿ منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ﴾ فإن المحكم هاهنا المراد به الواضح البيّن الجلي ، أي منه ما هو واضح وجلي في معناه ، لا خفاء فيه ولا غموض ، كقوله تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ ، وقوله : ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم ﴾ ، ومنه ما هو خفي المعنى

غير واضح كقوله تعالى : ﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت تحبسونهما من بعد الصلاة ... ﴾ الآية ، فإنها مشكلة معنى وإعرابا ، وكقوله : ﴿ أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح ﴾ فإنها محتملة للزوج وللولي ، وهذا القسم وهو ما فيه خفاء من حيث المعنى لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى ، وكذا الراسخون في العلم يعلمونه بفضل الله تعالى ، فهذا هو معنى قوله : ﴿ منه آيات محكمات ﴾ أي واضحات وجليات ، لا إشكال فيها ، ﴿ ومنه آيات متشابهات ﴾ أي خفيات في المعنى .

ثم بيّن الله تعالى موقف أهل الزيغ والذين في قلوبهم مرض ، وموقف الراسخين في العلم من هذه الآيات المحكمات والمتشابهات ، فقال تعالى : ﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ، ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ فموقف أهل الزيغ والفساد هو أنهم يأخذون هذا المتشابه فيبترونه ويحملونه على معاني غير التي دل عليها المحكم ، وأما موقف الراسخين في العلم فهو الإيمان به كله، وأنه كله من عند الله تعالى ، ويحملون هذا المتشابه على المحكم الواضح الجلي البين ، فيفسرون الخفي بالواضح ، والمبهم بالبين ، وينفك حينئذ الإشكال ، ويزول بذلك الاحتمال .

(مثال (١) : علو الله تعالى وموقف أهل العلم والزائغين منه)

مثال ذلك : علو الله جل وعلا فإنه ثابت بالأدلة المتواترة من الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والعقل ، والفطرة .

فمن القرآن : الآيات الدالة على علوه ، كقوله تعالى : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾، وقوله : ﴿ وهو العلي العظيم ﴾ والآيات الدالة على استوائه على العرش الذي هو أعلى المخلوقات ، كقوله تعالى : ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ ، وقوله : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ ، والآيات الدالة على فوقيته ، كقوله تعالى : ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ﴾ ، والآيات الدالة على نزول الأشياء منه ، كقوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ ، وقوله : ﴿ تنزيل من الرحمن الرحيم ﴾ ، وقوله : ﴿ قل نزله روح القدس من ربك ﴾ ،

والآيات التي تدل على صعود الأشياء وعروجها ورفعها إليه ، كقوله تعالى : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ ، وقوله : ﴿ إني رافعك إلي ﴾ ، وقوله : ﴿ بل رفعه الله إليه ﴾ ، وقوله : ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه ﴾، وقوله: ﴿ من الله ذي المعارج ﴾ ، والآيات التي تدل على أنه في السماء أي في جهة العلو ، كقوله : ﴿ أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور ۞ أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير ﴾ ، والآيات التي تدل على أن من عنده لا يستكبرون عن عبادته ، وأنهم يسبحونه بالليل والنهار ، وهم لا يسئمون ، وهم الملائكة لا الناس ، كقوله : ﴿ فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون ﴾ ، وقوله : ﴿ إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون ﴾ ، وغير ذلك كثير .

ومثل ذلك السنة أيضا : كقوله ﷺ للجارية : أين الله ؟ قالت : في السماء ، قال اعتقها فإنها مؤمنة . رواه مسلم ، وكقوله ﷺ : (ربنا الله الذي في السماء) ، وقوله ﷺ لسعد : (لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات) وقول زينب رضي الله عنها لأزواج النبي ﷺ : (لقد زوجكن آباؤكن ، وزوجني الله من فوق سبع سموات) ونحو ذلك من الأحاديث الكثيرة ، ولهذا أجمع السلف الصالح من الصحابة والتابعين فمن بعدهم على علوه سبحانه وتعالى علوا مطلقا ذاتا وقدرا وقهرا ، يليق بجلاله وعظيم سلطانه .

وأما العقل : فإنه يشهد بشرف جهة العلو على غيرها من الجهات ﴿ ولله المثل الأعلى ﴾ في ذاته وصفاته سبحانه وتعالى .

وأما الفطرة : فهي العقيدة التي فطر الله الناس عليها وهي شاهدة بذلك أيضا فإنه ما من أحد من الناس إلا ويجد في نفسه ضرورة تدفعه لطلب جهة العلو عند الضرورة.

ومع كل هذه الأدلة الواضحة والمتكاثرة فقد زلت أقدام بعض الناس في هذا الباب ، وذلك أن الله تعالى قال : ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ ، فمنهم من قال بالحلول والاتحاد ، ومنهم من قال : الله في كل مكان وسكت . ولا زم ذلك عقيدة الحلول والاتحاد ، ولكنهم لم

يلتزموا ذلك ، ولازمه أيضا وجوده في الأماكن القذرة والعياذ بالله ، ولكنهم لم يلتزموا ذلك فوقعوا في التناقض ، ومنهم من قال : لا نقول فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال ولا داخل العالم ولا خارجه ولا ... ولا ... فوصفوه بالمتناقضات والمستحيلات ، أو وصفوه بالعدم ، فأنكروا وجوده من حيث لا يشعرون .

وهذه الآية ونحوها غاية ما فيها أنها من المتشابه الذي يجب أن يرد إلى المحكم فهي محتملة لمعنيين الأول فاسد وهو عقيدة الحلول والاتحاد كما تقدم ، والثاني صحيح وهو أن المعية معية علم وسمع وبصر وإحاطة لا معية حلول واتحاد ومخالطة ، بدليل أول هذه الآية، وهو قوله تعالى: ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض﴾ وختامها أيضا ، وهو قوله : ﴿ إن الله بكل شيء عليم ﴾ والمعية يراد بها مطلق المصاحبة ، ولا يلزم منها الحلول والاتحاد والمخالطة ولهذا تقول العرب : سرنا والقمر معنا ، مع أن القمر في السماء ، وتقول : اذهب وأنا معك ، كما قال تعالى لهارون وموسى : ﴿ إنني معكما أسمع وأرى ﴾ .

(مثال (٣) : توحيد الله تعالى وموقف أهل العلم والزائغين منه)

ومثل ذلك أيضا : ما استدل به من يقول بعقيدة التثليث ، حيث تمسكوا بنحو قوله تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر ﴾ ، فقالوا : هذه صيغة جمع وأقله ثلاثة ، وأعرضوا عن قوله تعالى : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ، وقوله : ﴿ ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد ﴾ ، وقوله : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد ... ﴾ ، وقوله : ﴿ فإلهكم إله واحد ﴾ ، وقوله : ﴿ إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو ﴾ ، وقوله : ﴿ الله لا إله إلا هو ﴾ ، وقوله : ﴿ وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين ﴾ ، وقوله تعالى لعيسى : ﴿ أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ﴾ إلى أن قال : ﴿ ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم ﴾ ، إلى غير ذلك من الآيات المتكاثرة المتواترة ثبوتا ودلالة ، والتي تدل دلالة قاطعة على وحدانية الله جل وعلا ، أما ما ورد من صيغ الجمع في بعض الآيات فهي للتعظيم ، كما

هو معلوم عند عوام العرب ، ولا يزال كبار الناس من العلماء والأمراء يقولون : قلنا كذا ، وفعلنا كذا ، أو أمرنا بكذا ، ونهينا عن كذا .

ومن شبهاتهم أيضا التي يستدلون بها على أن المسيح عيسى ابن الله ـ تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ـ استدلالهم بقوله تعالى : ﴿ ونفخت فيه من روحي ﴾، وقوله : ﴿ وروح منه ﴾ ، فقالوا إن (مِنْ) ههنا للتبعيض ، وروحه بعض منه ، وأعرضوا عن قوله تعالى في عيسى : ﴿ قال إني عبد الله ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدًّا ﴾ أي عظيما ، وقوله تعالى: ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ ، وغيرها من الآيات الكثيرة ، التي هي نصٌ في أن الله واحد ﴿ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ﴾ ، أما قوله : ﴿ من روحي ﴾ فالإضافة هنا للتشريف كما في كقوله تعالى : ﴿ وطهر بيتي ﴾، وقوله تعالى : ﴿ مساجد الله ﴾ ، وقوله : ﴿ ناقة الله ﴾ ، وأما قوله : ﴿ وروح منه ﴾ فليست (من) للتبعيض كما أنَّها في قوله تعالى : ﴿ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه﴾ ليست للتبعيض أيضا ، وإنما المعنى من عنده جل وعلا ، كما هو ظاهر لمن له مسكة عقل .

فهذه الأمور التي يحتجون بِها على باطلهم إنَّما هي شُبَهٌ ، وأدلةٌ من المتشابه الذي يجب رده إلى المحكم الواضح ، لا بترها ورد المحكم بِها ، فإنما يفعل ذلك الذين في قلوبِهم زيغ ، كما أخبر بذلك ربنا جل وعلا في قوله : ﴿ فأما الذين في قلوبِهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ﴾. وأهل الباطل عموما لهم مثل ذلك، فهم يأخذون دليلا متشابِها محتملا ، ويُعرضون عن عشرات الأدلة المحكمة الواضحة التي لا إجمال فيها ولا غموض .

نسأل الله تعالى لنا ولكم ولهم التوفيق والسداد ، وأن يجعلنا وإياكم من الراسخين في العلم ، الذين يؤمنون بمحكمه ، ويصدقون بمتشابهه ، إنه ولي ذلك والقادر عليه ، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين .

كتبه : علي بن سالم بن يعقوب باوزير

بتاريخ : ١ رمضان ١٤٢٥ هـ